تطوير تدريس اللغة العربية

أ. فريدة محمد علي فارسي

المحور الأول: نبذة عن نشأة اللغة العربية:

مما نفاخر ونسعد به، أن حبانا الله الشرف العظيم، أن كنا من الأمة العربية، وزاد الشرف، وكان نتاجه الأعظم، أن أنزل الله أعظم كتبه بلسان عربي مبين.

اللغة العربية في زمن أصبح الكثير من الناس مع الأسف، يأنف من لغته، بل ويأنس بلغات أخرى، والمحزن كثيرا أن أوطاننا العربية باتت في أغلب مناحيها لا تتحدث العربية، إنك تشفق على وطن عربي، تدخل في أي مرفق من مرافقه، من أجل أن تبحث عمن يتحدث معك، فإذا به يفاخر بأنه يتحدث الإنجليزية، والأدهى: إن شروط التعيين لم يعد من بينها الحديث باللغة العربية إلا ما ندر.

لماذا وصلنا إلى هذه الدرجة؟ وما منزلة اللغة العربية بين لغات الأمم الأخرى؟

نشأت اللغة العربية أُحادية من عند الله، هذه حقيقة، وهذا ما نعتقده نحن المسلمين، إنها نزلت جملة واحدة مكتملة الأركان، وعلَّمها الله أدم، كما علمه الأسماء كلها، ونحن نستدل على ذلك بقول أحد علماء العربية الأقدمين، وهو ابن فارس، الذي شرح قوله تعالى: (وعلَّم آدم الأسماء كلها)، فقال: (علمه جميع الأسماء من وحش الخلاء، وطير الفضاء باللغة العربية، ثم انتشر بنوه في الأرض فاختلفت ألسنتهم، وحُفظت في جزيرة العرب، بعيدا عن كل المؤثرات، وسخّر الله تعالى لها أقواما، من ذوي الأفهام الشفيفة، فحفظوها واستحفظوها، حتى تنزّل بها القرآن، فخلُدتْ، وبقيتْ واضمحل وماتْ ما سواها من اللغات)

تشكل العربية إحدى أكبر اللغات السامية انتشارا، يتحدثها أكثر من ٤٢٢ مليون نسمة، ولما حمل العرب الإسلام إلى العالم، حملوا معه لغة القرآن العربية، ثم إن حبهم للإسلام هو الذي عرّبهم، فهجروا دينا إلى دين، وتركوا لغة إلى أخرى، ثم جاء الاستعمار الغربي، الذي وضع خطة لتحطيم اللغة، بدأت بالسعي لتحويل الحروف العربية إلى حروف لاتينية، وكان الهدف إزالة الحرف العربي، وتحريم الكتابة به، ثم تقديم اللغات الأجنبية في الأقطار الإسلامية المحتلة على اللغة العربية، ثم تقديم اللهجات العامية المحلية وتشجيعها، ثم ابتعاث الطلاب إلى الغرب، لدراسة لغاته في وقت الاستعمار، فنشأ جيل لديه ولاء وانتماء لغير لغته الأم، كذا أصبح التعليم في البلاد العربية المحتلة، يتم باللغات الأجنبية، كالإنجليزية في: (مصر والسودان والعراق)، والفرنسية في: (سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب)، وبنظرة شاملة نرى أننا مازلنا نعاني في بلادنا من هذه التحديات حتى الوقت الحاضر.

المحور الثاني: أسباب ابتعاد الناس عن اللغة العربية:

١ / ازدواجية اللغة:

الجيل اليوم حائر بين فصحى مكتوبة، وعامية منطوقة، فالمكتوبة لا يجيد فهمها، والمنطوقة لا يجب عليه أن يكتب بها.

ولكن ما هي اللغة الفصحى؟ وما هي العامية؟

القرآن الكريم هو المستوى اللغوي للفصحى السليمة الخالية من أي لحن أو خلل، أما العامية فهي فصحى أصابها الخلل، علما أننا لا نقصد بالعامية اللهجات المختلفة كالمصرية والسورية وغيرهما، لأن العرب كانت لها لهجات، ولا ينبغي أن نغفل عن ذلك، مثل الكشكشة، وهي إبدال كاف الخطاب المؤنثة إلى شين، (أعطيتك ــ أعطيتش)، إنما نقصد بالعامية اللغة التي تبتعد عن الفصحى بمعظم ألفاظها وتراكيبها، حتى أصبحت وكأنها لغة جديدة، والمشكلة تكمن في اتخاذها لغة رسمية عوضا عن الفصحى، أو استخدامها في التدريس.

مستويات بين العامية والفصحى:

وضع الدكتور/ السعيد محمد بدوي ــ عالم الدّراسات اللّغوية ــ خمس مستويات متدرجة بين الفصحى والعامية:

أ/ فصحى التراث: هي فصحى تقليدية غير متأثرة بشيء تقريبا، ويمثلها

فصحة رجال الدين.

ب/ فصحى العصر: هي فصحى متأثرة بالحضارة المعاصرة، وتمثلها لغة الصحافة كالمذيعين، الأحاديث العلمية والسياسية.

ج/ عامية المثقفين: هي عامية متأثرة بالفصحى، وبالحضارة المعاصرة معا، وتمثلها المناقشات بين المثقفين.

د/ عامية المتنورين: هي عامية متأثرة بالحضارة المعاصرة، ويمثلها غير الأميين، وبعض برامج الإذاعة والتلفزيون.

هـ/ عامية الأميين: هي عامية غير متأثرة بشيء نسبيا، لا بالفصحى، ولا بالحضارة، وتمثلها لهجة أولاد البلد.

٢ / الانشغال عن اللغة المتمثل في:

أ / عدم إظهار تاريخ الكتابة العربية:

من أهم مقومات الولاء لأي شيء معرفة تاريخه، من أين نشأ، وكيف وصل إلينا؟

فقد كُتبت مصاحف عثمان، خالية من النَّقْط والتشكيل، حتى تحتمل قراءتها الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، ورضيت بها الأمصار مدة أربعين عاما، بعد ذلك كان أبو الأسود الدؤلي، أول من فكر في وضع نقط الإعراب، للدلالة على حركة كل حرف في الكلمة، فالفتحة نقطة فوق الحرف، والضمة نقطة بين يدي الحرف، والكسرة نقطة تحت الحرف، إلى أن جاء نصر بن عاصم، ووضع النقط التي نعرفها، كذلك هو الذي رتب الحروف ألفبائيا، الترتيب المستعمل حتى الآن، بعد أن كان الترتيب المتبع هو سلسلة أبجد هوّز اللُّغوية التي تتفق فيها العربية مع بعض اللغات السامية، ثم جاء دور الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي وضع الطريقة المتبعة في التشكيل حتى الآن، (الفتحة، الكسرة، الضمة، والسكون)، ومن المهم معرفة القصص التي تكمن خلف الرموز والنقاط التي يدرسها الطالب، تعطيها أهمية، وتزرع حبها في نفسه.

ب / عدم إيضاح جمال خصائص الحرف العربي:

الحروف العربية حية، وكل حرف له شخصية، وأصواتها ترتبط ارتباطا قويا جدا بمعانيها، فمثلا: الكلمات التي تحتوي على صوت الغين هي دائما تدل على معنى الاستتار والغيبة والخفاء وعدم الوضوح وعدم البيان مثل: غيبة ــ غيمة ــ غنّة ــ غربة ، غاب، غار، غاص، أما الكلمات التي بها صوت الحاء تدل على الحدة والسخونة، مثل: حمى، حرارة، حب، حريق، حقد، حميم، حرام، حكة، حق، حار، وصوت الخاء يرمز إلى كل ما هو كريه وسيء ومنفِّر مثل: خوف، خِزي، خجل، خلاعة، خذلان، خنزير، خسيس، خلط، خُلْع، ..... إخ وهكذا.

وهذه الوظيفة تنفرد بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات، ففي اللاتينية مثلا ليس بين أنواع حروفها مثل هذه الفروق.

ج / عدم إيضاح جمال خصائص الكلمات في العربية:

الاشتقاق إحدى خصائص العربية التي تميزها عن غيرها من اللغات، بمعنى أن الكلمات في لغتنا لا تعيش فُرادى، إذ لها جسم وروح ونسب، و تلتقي مع مثيلاتها في مادتها ومعناها، مثل: (كتب) التي نستطيع أن نشتق منها كاتب، مكتوب، كتاب، وكتابة، وكذلك (طال) نجد منها: طويل، ويطول، وأطال، واستطالة، ومستطيل، وذو الطوْل، بينما تقف اللغة الإنجليزية عند tall.

و(جيد) نشتق منها: جاد، يجود، جواد، جياد، أجاد، ومجوّد، بينما تقف اللغة الإنجليزية أيضا عند good.

فعندما ينشأ جيل لا يعرف شيئا عن جمال لغته، في أحرفها، وكلماتها، وتاريخها، ونشأتها، ينشأ وحبه لهذه اللغة ناقص، وعلاقته بها ضعيفة، وإحساسه بقيمتها واهن، وبالتالي يصبح من السهل عليه أن يتخلى عنها.

د / طرق تدريسنا للغة العربية:

ابتعد الجيل الجديد عن لغته الأم، لأن التعليم ربطها بالقواعد والإعراب الذي لم يفهمه، والذي لم ينجح المعلمون في إيصاله لهذا الجيل الذي يريد أن يفهم ويقتنع، ولم يستطع الطلاب إدراك هذه المجردات، فما الذي سيحدث إن وضعنا ضمة في آخر اسم المفروض أن نضع على آخره فتحة؟؟ بالنسبة لهم: لن يحدث شيء.

بينما لو أدرك هذا الجيل أن للعربية نظامين مهمين في تراكيبها:

مُغلق: وفيه يكون هناك نمط معين للتراكيب، حيث الفعل فالفاعل فالمفعول،

ومفتوح: هو النظام النحوي الذي يعتمد على التقديم والتأخير لأغراض بلاغية، أبرزها الإيجاز الذي لا تستطيعه أي لغة أخرى في العالم، فمثلا في قوله تعالى (إياك نعبد) تقديم ما حقه التأخير، فإذا تُرجمت

للإنجليزية نحتاج إلى تسع كلمات كي نعبر عنها: We worship you and we worship no one else

ولو أدركنا، أننا عندما نتحدث بها مغلقة دون إعراب، فهي تؤدي المعنى وتتساوى مع غيرها من اللغات، وإن زيّناها، وأضفنا لها علامات الإعراب، أصبحت أكثر إبانة ووضوحا.

هـ/ حرصُنا على الأفضل لأبنائنا:

وجدنا أهمية كبرى للغة الإنجليزية في الحياة، واعتبرناها إحدى أسباب النجاح، فبدأنا نتكلم مع أبنائنا الإنجليزية، ووضعناهم في مدارس عالمية، وتركنا العربية من باب الحرص على أبنائنا.

المحور الثالث: العودة بالجيل الجديد إلى اللغة الأم:

ما الذي جعل البلاد التي دخلت حديثا في الإسلام أن تستبدل حروفها بالأحرف العربية؟ ليس إلا (حبهم للإسلام)، إنها الطريقة الوحيدة، وعليه لابد من:

١/ إظهار أهمية اللغة العربية:

يكفينا قول ابن تيمية: (إن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفهم إلا باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، واعتبر العلماء: ــ رحمهم الله ــ أن خدمة اللغة العربية، والتأليف فيها خدمة للقرآن الكريم، والدفاع عنها يُعد دفاعا عن حمى القرآن الكريم، وعليه لابد أن نتكلم مع أطفالنا عن الهُوية، وهي إحساس الفرد بنفسه وبفرديته.

٢/ الاجتهاد:

حفظ لنا التاريخ جهود روّاد بُذلت لخدمة هذه اللغة، فمثلا: سعد زغلول عندما تولى وزارة المعارف في مصر، كان التعليم في المراحل الأولى باللغة الإنجليزية، فألغى سعد كل هذا، وأمر أن تُدرَّس العلوم كلها باللغة العربية، كذا أمر باستبدال المؤلفات الغربية بمؤلفات جديدة باللغة القومية، وبذلك المسلك حافظ على عروبة مصر كلها، حتى قال أحد المفكرين المصريين: (إن سعدًا أحسن إلى جيلنا كله بجعلنا عربًا) فكم سعدًا نحتاج اليوم؟!!

أما عبد الله النعيم نقد أبناء الوطن الذين كانوا يتفاخرون باستعمال اللغات الأجنبية لغة للتفاهم والتعامل، كما وضَّح المخاطر التي ستترتب على مستقبل الوطن والدين نتيجة لما يفعلون، وكتب مقالًا تحت عُنوان: (إضاعة اللغة تسليم للذات)، خاطب فيه المتفرنجين قائلا: (يا أيها الناطق بالضاد، بمَ تستبدل لغتك وليس لها مثيل، وتتركها وأنت لها كفيل؟، وما الذي استحسنته في غيرها، واستقبحت مقابله فيها؟؟)

عندما نقرأ هذا لأبنائنا نجد أنفسنا مقصرين فعلا، فواجبنا أن نبين لهم أن اعتزاز الشخص بلغته الأم، يمكِّنه من تكوين شخصية تتسم بالاستقلالية، لأن الذي يعبر بلغته يشعر بالقوة والفخر.

٣/ عدم الاستهانة بالأخطاء وتشجيعها:

سواء كانت مكتوبة أو منطوقة،إذ يجب أن نقوِّم أبناءنا، ونعلمهم الصحيح من الخطأ، علينا ألا نسكت عن الأخطاء التي تحدث جهارًا في حق العربية، يجب أن نصحح للناس، وألا نتركهم فريسة لكتاباتهم المليئة بالأخطاء.

٤/ تسهيل وتقريب العربية إلى نفوس الناشئة:

أولا: يجب أن ندرك أن كتاباتنا العربية غير المضبوطة كتابة ناقصة، أي أن للتشكيل أهمية كبرى في اللغة العربية، وليس شيئًا زائدًا يحتاج إليه المبتدئون لتعلُّم اللغة.

ثانيا: يجب ألا ننسى دور النحو في هذه اللغة الشريفة، وإن شكا منه البعض، لكنه قيمة إضافية لها، ونقصد بالنحو: الإعراب الذي لا نجده في غير هذه اللغة من اللغات، فالنحو يجعل الواضح في هذه اللغة أكثر وضوحا، والبيّن أكثر إبانة، ويحمي اللغة من التلاعب عند استخدامها النظام المفتوح في التعبير، مثل (إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ)، وهو الذي يجعلنا نقرأ القرآن قراءة صحيحة، تساعدنا على فهمه واستيعابه، فهو جزء لا ينفصل عن تعلُّم العربية، وهذه بعض الاجتهادات التي تساعد في تقريب النحو إلى نفوس وعقول الجيل الجديد:

أ/ تعريف الطلاب بثوابت نحْوية تسهل عليهم الفهم، وتقربه إلى أذهانهم:

- أل التعريف مثلا لا تدخل إلا على الأسماء.
- التنوين ظاهرة تختص بالأسماء.
- التاء المربوطة ظاهرة تختص بالأسماء المؤنثة.

- ياء المخاطبة لا تتصل بالفعل الماضي مطلقا.
- ياء المخاطبة تتصل بالفعلين المضارع والأمر فقط.
- تنوين المصب يُرسم على الحرف قبل الألف دومًا.
- الألف تُعتبر دومًا حرف علة، ومد، ولين.
- وزير المعارف المصري: محمد حسين هيكل، أصدر عام ١٩٤١م قرارا، اقترح فيه الفصل بين النحو للعوام والنحو للمتخصصين، و ناقش فكرة إلغاء الضمير المستتر وجوبا وجوازا، كذا، طرح فكرة إلغاء الإعراب التقديري.

ب/ ربط اللغة بأشخاص محبوبين إلى نفوس أطفالنا، وليس فقط بالمدرسة.

نحن لا نستطيع تغيير نظرة الجيل الجديد للغة العربية في ليلة وضحاها، ولكن يمكننا أن نترك أثرًا في نطاق دائرة تواجدنا، أن نضع رؤية لما نحب أن نرى عليه جيلنا بخصوص اللغة العربية، ثم نضع خطة على هذا الأساس، وهو ما تفعله مدارس الحمراء.

ج/ إقامة نشاطات لتحبيب النشء في اللغة العربية:

ومن ذلك النشاطات المدرسية المتنوعة في مدارسنا، والتي تهدف إلى تشجيع التحدث باللغة العربية، إظهارا لحبها وتعزيزا لاستخدامها، وهي كثيرة بحمد الله في مدارس الحمراء.

ختامًا:

هذه اللغة سوف تظل إلى يوم الدين، سواء استطعنا نحن أن نؤدي دورنا نحوها، وإن لم نستطع، فيستبدلنا الله بقوم آخرين يؤدون المهمة، وفي النهاية ما قدمناه غيضٌ من فيض بحر هذه اللغة الشريفة.

المراجع:

١/ مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر. د/ السعيد محمد بدوي.
٢/طرق التدريس العامة. أ/ وليد أحمد جابر.
٣/ ورقة في (تعليم اللغة العربية في ضوء مواجهة تحديات العولمة وتلبية متطلباتها) د/ نصر الدين إدريس جوهر.